تراثنا

نشرة فصلية تصدرها

مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث

العدد الرابع (١٣) - السنة الثالثة - شوال ١٤٠٨ هـ

تراثنا

نشرة فصلية تصدرها مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث

■ الإسهام في النشرة باب مفتوح لجميع العلماء والمحقّقين والمهتمّين بشؤون تراث أهل البيت عليهم السلام.

■ الآراء المنشورة لا تعبّر عن رأي النشرة بالضرورة.

■ ترتيب المواضيع يخضع لاعتبارات فنّية، وليس لأيّ اعتبار آخر.

■ النشرة غير ملزمة بنشر كل ما يصل إليها.

المراسلات :

تعنون باسم: **هيئة التحرير**

بيروت ـ بئرالعبد ـ مقابل البنك اللبناني / الفرنسي

ص. ب. ٢٤/٣٤ ـ تلكس ٤٠٥١٢ ـ ت: ٨٢٠٨٤٣

تراثنا

العدد الرابع [١٣] / السنة الثالثة/ شوّال ـ ذوالقعدة ـ ذوالحجّة ١٤٠٨ هـ . ق.

الإعداد والنشر: مؤسسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ لإحياء التراث.

الكمّية: ١٠٠٠ نسخة.

قيمة الإشتراك السنوي في نشرة تراثنا ١٥ دولاراً داخل لبنان ، و٢٥ دولاراً في البلاد العربية وأوروبا وآسيا وأفريقيا والأمريكيتين واستراليا . بضمنها أجور البريد المضمون .

رسالة

«نقض فتاوى الوهابية»

للإمام الشيخ كاشف الغطاء

السيّد غياث طعمة

على أعتاب الذكرى

منذ أن روّى الإسلام رمال الجزيرة بدماء الأبرار، فاخضرّت أزهاره ونشر أريجه، وطمح أن يزيح كابوس الظلام والظلم عن صدر العالم، كانت جحافل الشرّ والكفر والنفاق تحاول قلع ما يغرسه الإسلام، وتقف سدّاً أمام مدّ النور الساطع، لأنّه إن انتشر ماتت، وما برحت تكيد الدسائس لمحو الإسلام،وإلّا فلتحجيمه على أضعف الآمال...

وبالفعل عصفت بالأُمّة الإسلامية عواصف هوجاء ، كل عاصفة تحمل لوناً وطريقة، لكنّها تلتقي في هدف القضاء على الإسلام...

وإذا كانت تلك النكبات قد جرت على أيدي أُناس انتحلوا الإسلام وتولّوا زمامه وهم يطعنونه صباح مساء، فلا غرو أن يشهر الغرب والشرق سلاحه ويعلن عداءه وهدفه بعد أن مهّد أدعياء الإسلام له ذلك.

وبالفعل فقد شمّر عن الساعد ووضع كل إمكاناته في سبيل خدمة هدفه الأصلي... القضاء على الإسلام العزيز... ولأجل تحاشي الاصطدام ما أمكن بدأ بزرع جراثيمه في الأصقاع الإسلامية، وكلّما كان البلد أكثر عراقة وأشدّ التزاماً بتعاليم دينه كان لا بُدّ أن تكون الشجرة الملعونة الحاكمة في ذلك البلد أشدّ سمّاً

وأكثر انزلاقاً في بحر الرذيلة، وعالمنا المعاصر أنموذج حيّ لذلك، ففي فلسطين تبذر إسرائيل،وفي مصر لا بُدّ أن يحكم السادات وأضرابه ليمرّ يد الذلّ ويمسح بها على يد تلطّخت بدماء المسلمين الأبرار وليجري أجلّ كلام... كلام الله... على أفحش لسان ويدّعي الاستناد إلى القرآن في عمله... وفي العراق وو...

ولمّا كانت أرض الحجاز تضمّ أقدس مقدّسات المسلمين... بيت الله وحرمه الآمن وحرم رسوله ـصلّى الله عليه وآلهـ...كان لا بُدّ أن يكون الخنجر أمضى من غيره... وهكذا كان حيث ترعرعت الوهّابية في رحم الكفر وولدت وتربّت في أحضانه، لتكون كما يريد وتطبّق ما يأمر،وتقاتل رسول الله ـصلّى الله عليه وآلهـ باسم دين الله إرضاء لربّها الأنگلو أمريكي، ولتفتري ما يحلو لها على الله ورسوله وتفتي على أُصول المَلِكة التي ألبست خادم الحريم ! لا الحرم الصليب وهو يبتسم ولا يستطيع إخفاء فرحه بهذا الوسام...

قد يكون ما حدث بالأمس بعيداً حينما يكون الحدث ميّتاً... ولكنّه حين يرتبط بالمقدّسات يبقى حيّاً ما حيي الضمير في المجتمع المسلم وتبقى كل لحظات الحدث شاخصة أمام الأعين والقلوب.

أجل... نحن على أبواب الذكرى السنوية الأُولى لمجزرة البيت الحرام... البيت الذي يأمن فيه النمل والجراد... يأمن فيه القاتل من القصاص حتى يخرج منه، ويتعرّض حجّاج بيت الله إلى مجزرة لم يشهد التاريخ لها نظيراً حتى أيام الجاهلية الأُولى! ولا في جاهلية القرن العشرين...!!

أُخذوا وقُتّلوا تقتيلاً، لا لذنب جنوه، إلّا أنّهم كبّروا وهلّلوا وتبرّؤوا من أعداء الله كما أمر الله وتطبيقاً لشريعة الله... لكن أمِنَ الإسلام وخلافة الله قَتْلُ زوّار الله وهم على مائدة الله وفي ضيافته؟!

كيف يُعرَّف الإسلام من ليس بمسلم؟

هل الوهّابيّون مسلمون؟! فأيّ إسلام يأمر أن تبقى لحوم الأضاحي طعمة لحرارة الشمس حتى تتفسّخ... وملايين البشر من المسلمين وغيرهم عيدهم أن

يشبعوا من رائحة الطعام فضلاً عن تناوله...؟!

هل هم مسلمون... وهم يهينون رسول الله -صلّى الله عليه وآله- حينما يعتبر زعيمهم عصاه أفضل من النبي -صلّى الله عليه وآله- وهو ولي كل مؤمن ومؤمنة..؟!

أهم يخدمون البيت ويطهّرونه.. وهم قد نجّسوه بكل منكر استطاعوا فعله..؟!

وأيّ شيء فيهم يمتّ إلى الإسلام بصلة ولو كخيط بيت العنكبوت.. فكرهم.. أخلاقهم.. معاملتهم.. عدلهم.. أم ماذا..؟!

أجل، تمرّ الأيّام لتكمل سنة على المجزرة، لكنّها سنة في حساب الزمن وهي لحظات في حساب الوجدان والضمير لأنّها ماثلة ما صعد نفس ونزل وما غمضت عين وفتحت...

لقد تصدّى الكثير من العلماء الأبرار للردّ على هذه الفرقة الضالّة وبدعها، وألّفت في ذلك المؤلفات مثل: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهّاب؛ فتنة الوهّابية؛ هكذا رأيت الوهّابيّين، وغيرها، ومن جملة من ألّف الشيخ كاشف الغطاء -طاب ثراه- حيث كتب رسالة «نقض فتاوى الوهّابية».

• • •

رسالة
نقض فتاوى الوهّابيّة

وهي رسالة من خمس -أو أربع رسائل- جمعت في كتاب «الآيات البيّنات في قمع البدع والضلالات» من تأليف علم من أعلام هذا القرن، غطّت سمعته الأرجاء، وأقرّ بفضله العلماء، ألا وهو الشيخ محمدُ حسين كاشف الغطاء -طاب ثراه-.

اسمه ونسبه:

هو الشيخ محمد حسين بن شيخ العراقين علي بن الحجّة الشيخ محمد رضا ابن المصلح بين الدولتين موسى بن الشيخ الأكبر جعفر بن العلّامة الشيخ خضر ابن يحيى بن سيف الدين المالكي الجناجي النجفي.

ولادته ونشأته:

ولد في النجف الأشرف سنة ١٢٩٤ هـ، ونشأ في بيت جليل عُرف بالعلم وربّى العلماء، وشرع بدروسه حين بلغ العاشرة من عمره، وأنهى دراسة سطوح الفقه والأُصول وهو بعد شابٌّ، ثمّ بدأ الحضور في دروس أكابر العلماء كالشيخ محمد كاظم الخراساني والسيد اليزدي وآغا رضا الهمداني وأضرابهم، ولازمهم سنين طوالاً حتى برز بين أقرانه وحظي باحترام واهتمام أساتذته، ودرس الفلسفة على يد الميرزا محمد باقرالأصطهباناتي والشيخ أحمد الشيرازي وغيرهما من الفحول، ولمّا لمع نجمه ونبغ شرع في التدريس في مسجد الهندي وكان درسه يضمّ من الفضلاء ما يربو على المائة.

* * *

رحلاته ونشاطاته:

ومن السمات المميّزة لحياة الشيخ كاشف الغطاء ـ قدّس سرّه ـ رحلاته المتعدّدة واستثمارها، ونشاطاته المتنوّعة، خصوصاً في نشر صوت مذهب الإمامية والدعوة إلى وحدة الكلمة بين المذاهب الإسلامية عموماً من خلال النقاش الموضوعي، فعندما طبع الجزء الأول من كتابه «الدين والإسلام» وهَمَّ بأن يطبع الثاني إذا بالسلطة تأمر بمهاجمته ومنعه من الطبع، فسافر إلى الحجّ، ومنه إلى الشام فبيروت وطبع الجزءين بصيدا، واتّصل بكبار العلماء ورجالات الفكر وجرت عدّة محاورات ومراسلات معهم من جملتها محاوراته مع فيلسوف الفريكة أمين الريحاني، وناقش ضمن هذه المحاورات جرجي زيدان حول مؤلَّفه «تاريخ آداب اللغة العربية» وأظهر الكثير من شطحاته، وناقش كذلك الشيخ يوسف الدجوي أحد مدرّسي الجامع الأزهر، والشيخ جمال الدين القاسمي عالم دمشق حينها، ونشر خلال هذه السفرة عدّة مؤلفات له، ونشر عدّة كتب لعدّة مؤلفين وأشرف على تصحيحها والتعليق عليها، وقضى ثلاث سنوات في سوريا ولبنان ومصر.

ووافق عودته إلى العراق سنة ١٣٣٢ نشوب الحرب العالمية الأُولى فقضى سنيها في سوح الجهاد بصحبة السيد محمد ـ ولد أُستاذه السيد اليزدي ـ ورجع إلى النجف الأشرف عند انتهائها، وفي سنة ١٣٣٨ رجع في التقليد إلى المترجَم له خلق كثير.

وفي سنة ١٣٥٠ انعقد المؤتمر الإسلامي العامّ في القدس الشريف، ودعي من قبل لجنة المؤتمر مراراً فأجاب الدعوة، وألقى في المؤتمر خطبة ارتجالية ظهر فيها فضله وعظمته، فقدّمه العلماء وائتمّوا به في الصلاة، وفي عام ١٣٥٢ زار إيران وبقي فيها حدود ثمانية أشهر داعياً الناس إلى التمسّك بمبادئ الدين الحنيف، وفي سنة ١٣٧١ حضر المؤتمر الإسلامي في كراچي.

* * *

مؤلفاته:

إضافة إلى المقالات النفيسة والقصائد البديعة التي نشرت في أُمّهات الكتب، فقد ترك المؤلف آثاراً جليلة نذكر ما وقفنا عليه:

١ـ الآيات البيّنات في قمع البدع والضلالات.

٢ـ أصل الشيعة وأُصولها.

٣ـ الفردوس الأعلى.

٤ـ الأرض والتربة الحسينية.

٥ـ العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية (مخطوط).

٦ـ تحرير المجلة.

٧ـ المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون.

٨ـ شرح على العروة، كتبه في حياة أُستاذه (مخطوط).

٩ـ الدين والإسلام، أو الدعوة الإسلامية إلى مذهب الإمامية (أربعة أجزاء طبع منها إثنان).

١٠ـ نزهة السمر ونهزة السفر (مخطوط).

١١ـ المراجعات الريحانية، الموسوم بالمطالعات والمراجعات أو النقود والردود.

١٢ـ وجيزة الأحكام.

١٣ـ السؤال والجواب.

١٤ـ زاد المقلّدين (فارسي).

١٥ـ حاشية التبصرة.

١٦ـ حاشية العروة الوثقى.

١٧ـ تعليقة على سفينة النجاة.

١٨ـ مناسك الحجّ.

١٩ـ تعليقة على عين الحياة.
٢٠ـ حاشية على مجمع الوسائل (فارسي).
٢١ـ التوضيح في بيان حال الإنجيل والمسيح.
٢٢ـ عين الميزان، في الجرح والتعديل.
٢٣ـ محاورة مع السفيرين.
٢٤ـ ملخّص الأغاني (مخطوط).
٢٥ـ رحلة إلى سورية ومصر (مخطوط).
٢٦ـ ديوان شعر (مخطوط).
٢٧ـ جَنّة المأوى.
وغيرها كثير.

وفاته ومدفنه:

دبّت في بدن الشيخ الجليل كاشف الغطاء أواخر أيامه عدّة أسقام، لكنّه لم يتوان لحظة ولم يألُ جهداً في سبيل خدمة الدين والمسلمين، ولمّا اشتدّ عليه مرضه سافر إلى بغداد ورقد في المستشفى شهراً فاقترح عليه البعض الذهاب إلى (كرند) لطلب الصحّة، فقصدها في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٧٣ لكنّ الأجل لم يمهله، فوافاه يوم الإثنين ١٨ ذي القعدة ١٣٧٣ هـ بعد صلاة الفجر فنقل جثمانه الشريف إلى النجف ودفن في مقبرته الخاصّة التي أعدّها سلفاً في وادي السلام وبذلك ودّع الإسلام أحد أفذاذه وثلم به ثلمة عظيمة(*).

وإليك ـأخي المسلمـ الرسالة كاملة...

(*) لمزيد الاطلاع على ترجمته أُنظر: الدليل العراقي الرسمي لسنة ١٩٣٦، الموسوعة العربية، المكتبة البلدية، فهرس التوحيد، المنجد، نقباء البشر، الأعلام للزركلي، معجم المؤلفين، مقدّمة الفردوس الأعلى، مقدّمة جنّة المأوى، المثل العليا في الإسلام لا في بحمدون، أصل الشيعة واصولها، مجلة «الأديب» عدد ١٢ سنة ١٣، صوت البحرين/ ذي القعدة ـ ذي الحجة ١٣٧٣، العرفان ٣٦ و٤٣ وآب/ ٥٤، المعارف عدد ٢ سنة ١، المقتبس/ عبدالفتّاح العسكري ٧: ٧٧٦ـ٧٧٨ و٨: ٢١٢ـ٢١٣.

بسم الله الرحمن الرحيم

(إِنَّ الَّذينَ يَكْتُمُونَ ما أَنزلنا مِنَ البيّنات والهُدى مِنْ بَعد ما بيّناهُ لِلناسِ في الكِتابِ أُولئكَ يَلْعَنُهمُ الله ويَلعنُهمُ اللاعِنونَ.)

رسالة

نقض فتاوى الوهّابية

وردّ كلّية مذهبهم

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام. وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحبّ الفساد. وإذا قيل له اتّقِ الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنّم ولبئس المهاد.

وحي معجز

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما ألقاه علينا أُستاذنا الأكبر، وشيخنا الأعظم، حجّة الإسلام، آية الله في الأنام، علّامة الدهر، مولانا الشيخ محمد حسين دامت بركاته في شأن الوهّابية، واستفتاء علماء المدينة المتضمّن تهديم القبور وغير ذلك في عدّة مجالس ضممنا بعضها إلى بعض وجلوناها مجموعة عليك.

قال دامت أيام إفاداته: وقفنا من جريدة العراق في العدد الموافق منها ١٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٤ على سؤال قاضي قضاة الوهّابيّين ابن بليهد مستفتياً علماء المدينة عن البناء على القبور، واتّخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها وما يفعل عند الضرائح، من التمسّح والتقرّب إليها بالذبائح والنذور، وتقبيلها وعن التكبير والترحيم والتسليم في أوقات مخصوصة...

هذا ملخّص السؤال وكان الجواب من علماء المدينة بالمنع مطلقاً ووجوب الهدم، مستدلّين على المنع في بعضها، ومرسلين الفتوى بغير دليل في الباقي.

وقد رغب إلينا الكثير من الأعلام والأفاضل في إبداء ملاحظتنا على تلك الفتوى، ووضعها في معيار الاختبار وميزان الصحّة والسقم، وعرضها على محكّ النقد، ومطرقة القبول أو الردّ، إيضاحاً للحقيقة وطلباً للصواب، كي لا تعرض الأوهام والشكوك وتعلق الشبهة بأذهان البسطاء من المسلمين، فإنّ البلية عامة، والمصيبة شاملة، والرزيّة على الجميع عظيمة؛ وعليه فنذكر نصّ الفتوى جملة جملة حسبما ذكر في تلك الجريدة، ثم نعقّب كل جملة منها بما يحقّ لها من البيان، وبالله المستعان.

قالوا في الجواب: أمّا البناء على القبور فهو ممنوع إجماعاً لصحّة الأحاديث الواردة في منعه، وبهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه، مستندين على ذلك بحديث علي -رضي الله عنه- أنّه قال لابن الهياج:«ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله -صلّى الله عليه وآله- ألّا أدع تمثالاً إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته»[1] رواه مسلم. انتهى.

فتراهم قد تمسّكوا تارة بالإجماع، وأُخرى بالحديث، أو بالإجماع المستند إلى الحديث.

أمّا دعوى الاجماع فهي مدحوضة مرفوضة ولكن لا تتّسع أعمدة الصحف والمجلّات لنقل كلمات العلماء في جوازه، بل رجحانه، وفساد توهّم الاجماع وبطلانه من أول الإسلام وإلى هذه الأيام، وأيّ حاجة بك إلى أن أسرد لك أو أُملي عليك ما يوجب الملل (قال فلان وقال فلان)، وهذا عمل المسلمين وسيرتهم القطعية في جميع الأقطار والأمصار ملء المسامع والأبصار، على اختلاف

---

(١) صحيح مسلم ٦٦٦/٢ باب ٣١ ح ٩٣، مسند أحمد ٩٦/١ و ١٢٩، سنن النسائي ٨٨/٤ وفيه: ولا صورة في بيت إلّا طمستها، سنن أبي داود ٢١٥/٣ ح ٣٢١٨، الجامع الصحيح للترمذي ٣٦٦/٣ باب ٥٦ ح ١٠٤٩.

طبقاتهم وتباين نزعاتهم، من بدء الإسلام إلى هذه الغاية من العلماء وغيرهم، من الشيعة والسُنّة وغيرهم، وأيّ بلاد من بلاد الإسلام من مصر أو سوريا أو العراق أو الحجاز وهلمّ جرّاً ليس لها جبّانة شاسعة الأطراف واسعة الأكناف، وفيها القبور المشيّدة والضرائح المنجّدة؟!

وهؤلاء أئمّة المذاهب: الشافعي في مصر، وأبو حنيفة في بغداد، ومالك بالمدينة، وتلك قبورهم من عصرهم إلى اليوم سامقة المباني شاهقة القباب، وأحمد ابن حنبل مباءة الوهّابية ومرجعهم في الفروع كان له قبر مشيّد في بغداد جرفه شطّ دجلة حتى قيل: «أطبق البحر على البحر». وكلّ تلك القبور قد شُيّدت وبنيت في الأزمنة التي كانت حافلة بالعلماء وأرباب الفتوى وزعماء المذاهب، فما أنكر منهم ناكر، بل كلّ منهم محبّذ وشاكر.

وليس هذا من خواصّ الإسلام، بل هو جارٍ في جميع الملل والأديان، من اليهود والنصارى وغيرهم، بل هو لعمر الحقّ من غرائز البشر ومقتضيات الحضارة والعمران وشارات التمدّن والرُقيّ، والدين القويم المتكفّل بسعادة الدارين إذا كان لا يؤكّده ويحكمه فما هو بالذي ينقضه ويهدمه، وإذا كان كل هذا لا يكفي شاهداً قاطعاً ودليلاً بيّناً على فساد دعوى الإجماع فخير أن تكسر الأقلام ويبطل الحجاج والخصام ولا يقوم على شيء دليل ولا بيّنة ولا حجّة ولا برهان:

وليس يصحّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

هذا حال الإجماع، أمّا حديث مسلم: «لا تدع تمثالاً إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سويته» فها هي نسخة من صحيح مسلم بين يدي، طبع بولاق القديمة سنة ١٢٩٠، وقد روى الحديث المزبور صفحة ٢٦٥ ج ١ في باب الأمر بتسوية القبر، ولكن بعد هذا بقليل صفحة ٢٥٦ قال: (باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها) وروى فيه بسنده إلى عائشة: انّ النبي كان يخرج إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين[٢] إلى الآخر في حديثين طويلين.

---

(٢) صحيح مسلم ٦٦٩/٢ باب ٣٥ ح ١٠٢ و ١٠٣.

وروى بعدهما بسنده إلى سليمان بن بريدة عن أبيه، قال: كان رسول الله -صلّى الله عليه وآله- يعلّمهم إذا خرجوا إلى المقابر فكان قائلهم يقول في رواية أبي بكر: السلام على أهل الديار[٣]. وفي رواية زهير: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين والمسلمات وإنّا إن شاء الله للاحقون، أسأل الله لنا ولكم العاقبة[٤].

ثمّ بعد أن فرغ من هذا الباب قال تلوه: «باب استئذان النبي -صلّى الله عليه وآله- ربّه عزّوجلّ في زيارة قبر أُمّه»، وروى فيه أربعة أحاديث صريحة في الأمر بزيارة القبور:

أولها: بسنده إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلّى الله عليه وآله-: استأذنت ربّي أن أستغفر لأُمّي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي[٥].

ثانيها: بسند آخر إلى أبي هريرة، قال: زار النبي -صلّى الله عليه وآله- قبر أُمّه فبكى وأبكى من حوله فقال: استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي، واستاذنته أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنّها تذكّر الموت[٦].

ثالثها: بسنده عن ابن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وآله-: نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فأمسكوا ما بدا[٧] لكم، إلى آخر الحديث.

رابعها: بسند آخر بالمعنى المتقدّم أيضا[٨].

وبين يدي كذلك كتابان جليلان لعالمين جليلين من كبار مشاهير علماء

---

(٣) صحيح مسلم ٦٧١/٢ باب ٣٥ ح ١٠٤.
(٤) صحيح مسلم ٦٧١/٢ باب ٣٥ ح ١٠٤.
(٥) صحيح مسلم ٦٧١/٢ باب ٣٥ ح ١٠٥.
(٦) صحيح مسلم ٦٧١/٢ باب ٣٥ ح ١٠٥.
(٧) صحيح مسلم ٦٧٢/٢ باب ٣٦ ح ١٠٦.
(٨) صحيح مسلم ٦٧٢/٢ باب ٣٦ ح ١٠٦.

السُنّة والجماعة: أحدهما كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام، للإمام الحافظ قاضي قضاة المسلمين في القرن الثامن الشهير بتقي الدين أبي الحسن السبكي، ويسمّى أيضاً بـ «شنّ الغارة على من أنكر فضل الزيارة» وقد نشر هذا الكتاب ومثله للطبع سنة ١٣١٨ في مطبعة بولاق لعالم الفنّ العلّامة الجليل أحد أكابر علماء مصر القاهرة الشيخ محمد بخيت المطبعي، رئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر، وقد حضرنا دروسه بمصر سنة ١٣٣٠ فوجدناه في أكثر العلوم بحراً موّاجاً، وسراجاً وهّاجاً، شعلة ذكاء وفهم، وإحاطة وحزم؛ ودفع إلينا جملة من مؤلّفاته منها ذلك الكتاب الذي نشر في صدره مقدّمة في بعض أحوال ابن تيميّة مؤسس مذاهب الوهّابية وبعض بدعه في الدين وتكفيره من جمهور علماء المسلمين، وقد أجاد في تلك المقدّمة، وأحسن النظر في الموضوع وعلله وأسبابه.

أمّا ذات كتاب الإمام السبكي فقد رتّبه على عشرة أبواب:

الأول: في الأحاديث الواردة في الزيارة.

الثاني: في الأحاديث الدالة على ذلك وإن لم يكن فيها لفظ الزيارة.

الثالث: فيما ورد في السفر إليها.

الرابع: في نصوص العلماء على استحبابها.

الخامس: في كونها قربة.

السادس: في كون السفر لها قربة.

السابع: في دفع شبه الخصم وتتبع كلماته.

الثامن: في التوسّل والاستغاثة.

التاسع: في حياة الأنبياء.

العاشر: في الشفاعة.

وذكر في الباب الأول من الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ، وفضلها، والحثّ عليها خمسة عشر حديثاً، وأطنب في تصحيح سند كلّ واحد منها، والبحث عن رجال السند وعلّله فصحّح أسانيد أكثرها، مثل: «من

زار قبري وجبت له شفاعتي»[٩]، وقد أفاض في البحث عن سند هذا الحديث في خمس أوراق وبمضمونه حديثان آخران ومثل: «من حجّ فزار قبري بعد وفاتي فكأنّما زارني في حياتي»[١٠] وأفاض في النظر والبحث عن سنده في أربع أوراق ومثل: «من حجّ البيت ولم يزرني فقد جفاني»[١١] إلى أمثال ذلك من الأحاديث التي آخرها في هذا الباب: «من أتى المدينة زائراً لي وجبت له شفاعتي يوم القيامة» و«من مات في أحد الحرمين بعث آمناً»[١٢].

ثم استوفى القول والحديث في الباب الثاني، ودخل بعده في الباب الثالث وذكر مفصّلاً زيارة بلال من الشام التي هاجر إليها بعد وفاة النبي -صلّى الله عليه وآله- وأنّه رأى النبي في المنام وهو يقول له: «ما هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن تزورني؟!»فانتبه حزيناً وجلاً، فركب راحلته وقصد المدينة فأتى قبر النبي - صلّى الله عليه وآله - ، إلى آخر الحديث. وكان ذلك في زمن أكابر الصحابة كالشيخين وغيرهما، وعقّبه بذكر زيارة جماعة من الصحابة والتابعين لقبره -وشدّ الرحال إليه.

الكتاب الثاني بين أيدينا كتاب «الجوهر المنظّم في زيارة قبر النبي المكرّم» تأليف العالم الشهير صاحب المؤلفات الطائرة الصيت، أحمد بن حجر

---

(٩) سنن الدارقطني ٢/٢٧٨ ح ١٩٤، الجامع الصغير للسيوطي -نقلاً عن البيهقي- ٢/٦٠٥ ح ٨٧١٥، كنز العمّال ١٥/٦٥١ ح ٤٢٥٨٣، وفاء الوفاء ٤/١٣٣٦، الكامل لأبي أحمد بن عدي ٦/٢٣٥٠، وأورد العلّامة الأميني في الغدير ٥/٩٣-٩٦ «٤١» مصدراً، فراجع.

(١٠) سنن الدارقطني ٢/٢٧٨ ح ١٩٢، سنن البيهقي ٥/٢٤٦، كنزالعمّال ٥/١٣٥ ح ١٢٣٦٨ و١٥/٦٥١ ح ٤٢٥٨٢، وفاء الوفاء ٤/١٣٤٠ وفيه: كان كمن زارني، الكامل لأبي أحمد بن عدي ٢/٧٩٠، الجامع الصغير للسيوطي -نقلاً عن الطبراني- ٢/٥٩٤ ح ٨٦٢٨، وأورد العلّامة الأميني في الغدير ٥/٩٩-١٠٠ «٩» مصادر، فراجع.

(١١) كنز العمّال ٥/١٣٥ ح ١٢٣٦٩، وفاء الوفاء ٤/١٣٤٢، شفاء السقام:٢٣، وأورد الأميني «٩» مصادر في الغدير ٥/١٠٠.

(١٢) وفاء الوفاء ٤/١٣٤٨، شفاء السقام: ٣٤، وقد أورد السبكي في شفاء السقام كلّ الأحاديث السابقة في الفصل الأول.

الشافعي، المطبوع ذلك الكتاب بمطبعة بولاق أيضاً في مصر، القاهرة سنة ١٢٧٩، ورتّبه ـ كسابقه ـ على فصول:

الأول: في مشروعيّة زيارة قبر النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ، واستدلّ عليها من الكتاب بآيات، ومن السُنّة بأحاديث كثيرة صحح أسانيدها من الطرق المتّفق عليها عند جمهور المسلمين، ثمّ استدلّ بإجماع علماء المسلمين، وزاد على ماذكره الحافظ السبكي لتأخّر زمانه عنه.

قال ابن حجر ـ بعد أن استوفى الكلام في سرد الحديث والإجماع على فضل الزيارة فضلاً عن مشروعيّتها، صفحة ١٣ ـ ما نصّه:

فإن قلت: كيف تحكي الإجماع السابق على مشروعيّة الزيارة والسفر إليها وطلبها وابن تيميّه من متأخّري الحنابلة منكرٌ لمشروعيّة ذلك كلّه كما رآه السبكي في خطّه، وقد أطال ابن تيميّه في الاستدلال لذلك بما تمجّه الأسماع وتنفر عنه الطباع، بل زعم حرمة السفر لها إجماعاً وأنّه لا تقصر فيه الصلاة، وأنّ جميع الأحاديث الواردة فيها موضوعة، وتبعه بعض من تأخّر عنه من أهل مذهبه؟!

قلت: من هوابن تيميّة حتى يُنظر إليه أو يعوّل في شيء من أُمور الدين عليه؟! و هل هو إلّا كما قال جماعة من الأئمّة الّذين تعقّبوا كلماته الفاسدة؛ وحججه الكاسدة؛ حتى أظهروا عوار سقطاته؛ وقبائح أوهامه وغلطاته؛ كالعزّ بن جماعة: عبد أضلّه الله تعالى وأغواه، وألبسه رداء الخزي وأرداه، وبوّأه من قوة الافتراء والكذب ما أعقبه الهوان؛ وأوجب له الحرمان.

ولقد تصدّى شيخ الإسلام، وعالم الأنام، المجمع على جلالته، واجتهاده وصلاحه وإمامته، التقي السبكي، قدّس الله روحه، ونوّر ضريحه؛ للردّ عليه في تصنيف مستقلّ أفاد فيه[١٣] وأجاد وأصاب وأوضح بباهر حججه طريق الصواب؛ ثمّ قال: هذا ما وقع من ابن تيميّة ممّا ذكر، وإن كان عثرة لا تقال أبداً، ومصيبة يستمرّ شؤمها سرمداً، ليس بعجيب، فإنّه سوّلت له نفسه وهواه

---

(١٣) وكذا ناقشه في شفاء السقام في باب دفع شبهة الخصم ٩٨-١١٥.

وشيطانه أنّه ضرب مع المجتهدين بسهم صائب؛ ومادرى المحروم أنّه أتى بأقبح المعائب إذ خالف إجماعهم في مسائل كثيرة، وتدارك على أئمّتهم سيما الخلفاء الراشدين باعتراضات سخيفة شهيرة، حتى تجاوز إلى الجناب الأقدس المنزّه ـ سبحانه ـ عن كل نقص، والمستحقّ لكلّ كمال أنفس، فنسب إليه الكبائر والعظائم، وخرق سياج عظمته بما أظهره للعامة على المنابر من دعوى الجهة والتجسيم، وتضليل من لم يعتقد ذلك من المتقدّمين والمتأخّرين، حتى قام عليه علماء عصره؛ وألزموا السلطان بقتله أو حبسه وقهره، فحبسه إلى أن مات وخمدت تلك البدع، وزالت تلك الضلالات، ثمّ انتصر له أتباع لم يرفع الله لهم رأساً، ولم يظهر لهم جاهاً ولا بأساً، بل ضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، انتهى.

هذا بعض كلام ابن حجر العالم الذي ليس له في علماء السُنّة مدافع؛ ولا ينازع في جلالة شأنه وعظيم فضله منازع، ولسنا الآن في صدد تعداد مثالب ابن تيميّة وبدعه في الدين، وما أدخله من البليّة على الإسلام والمسلمين، فإنّ ذلك خارج عمّا نحن بشأنه من مواقف الحجّة والبرهان، والنظر في الأدلّة على نهج علمي لا يخرج عن دائرة آداب المناظرة.

وأمّا حال ابن تيميّة... فقد كفانا مؤونة إشاعة فضائعه ووقائعه عَلَما الجمهور من أهل السُنّة والجماعة شكرت مساعيهم الجميلة.

أمّا كلمتنا التي لا بُدّ لنا من إبدائها في الجمع بين تلك الأخبار، ونظريّتنا في استجلاء الحقيقة من خلال تلك الحجب والأستار، فسوف نبديها في تلو هذا السجلّ ناصعة بيضاء مسقرّة، وعليه التكلان، وبه المستعان.

ها نحن أُولاء، بعد أن سردنا عليك ذرواً من الأحاديث، وشذوراً من الروايات، نريد أن نأتي على الخلاصة، ونوقفك على الفذلكة، ونمنحك الحقيقة المكنونة، والجوهرة الثمينة فنتوصّل إلى الحقيقة من أقرب طرقها، ونتوسّل إلى البغية المنشودة بأقوى أسبابها، وأوثق عراها، وأمتن أواخيها، فنقول:

نقدّر على الفرض أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- هاهو أمام كل مسلم من أُمّته يراه بعينه ويسمعه بأُذنه قائلاً له: «لا تدع تمثالاً إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته» بناءً على صحّة كلّ ما ورد في الصحيحين -البخاري ومسلم- إذ هذا الفرض -وإن كنّا لا نقول به- ولكن نجعله من الأُصول الموضوعة بيننا -أعني به ما هو فصل النزاع وقاطع الخصومة- ومعلوم أنّ المتخاصمين إذا لم يكن فيما بينهما أُصول موضوعة ينتهون إليها، ويقفون عندها، لا تكاد تنتهي سلسلة النزاع بينهما والتخاصم طول الأبد، وعمر الدهر، إذاً فنحن على سبيل المجاراة والمساهلة مع الخصم نقول بصحّة ذلك الحديث، كما يلزمنا معاً أن نقول بصحّة غيره من أحاديث الصحيحين فها هو النبي -صلّى الله عليه وآله- يقول: «لا تدع قبراً مشرفاً إلّا سوّيته»، كما رواه مسلم، -ولكنّه يقول حسب روايته أيضاً: «فزوروا القبور فإنّها تذكّر الموت...»،و«استأذنت ربّي في زيارة قبر أُمّي فأذن لي»... وقد زار هو قبور البقيع... وفي البخاري عقد باباً لزيارة القبور وحينئذ- فهل هذه الأحاديث متعارضة متناقضة؟! النبي الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى يأمر بهدم القبور... ويأمر بزيارتها... يأمر بهدمها ثمّ هو يزورها...

فإن كان المقام من باب تعارض الأحاديث واختلاف الروايات وجب الجمع بينهما لا محالة، على ما تقتضيه صناعة الاجتهاد، وطريقة الاستنباط، وقواعد الفنّ المقرّرة في الأُصول، بحمل الظاهر على الأظهر، وتأويل الضعيف من المتعارضين وصرفه إلى المعنى الموافق للقوي، فيكون القوي قرينة على التصرّف في الضعيف، وإرادة خلاف ظاهره منه كما يعرفه أرباب هذه الصناعة، فهل المقام من هذا القبيل؟!

كلّا ثم كلّا، ومهلاً مهلاً: إنّ هذه الساقية ليست من ذلك النبع، وتلك القافية ما هي من ذلك السجع؛ وليس المقام من باب التعارض كي يحتاج إلى التأويل والجمع.

ما كنت أحسب أنّ أدنى من له حظّ من فهم التراكيب العربية

والتصاريف اللغوية يخفى عليه الفرق بين «التسوية» و«المساواة».

إنّ الّذين يصرفون قوله ـعليه السلامـ: «ولا تدع قبراً مشرفاً إلّا سوّيته» إلى معنى ساويته بالأرض أي «هدمته» أُولئك قوم أيفت أفهامهم، وسخفت أذهانهم، وضلّت ألبابهم، ولم يكن من العربية لهم ولا قلامة ظفر فكيف بعلمائهم؟!

ولا يخفى على عوامّ العرب أنّ تسوية الشيء عبارة عن تعديل سطحه أو سطوحه، وتسطيحه في قبال تقعيره أو تحديبه أو تسنيمه وما أشبه ذلك من المعاني المتقاربة[١٤] والألفاظ المترادفة، فمعنى قوله ـصلّى الله عليه وآلهـ: «لا تدع قبراً مشرفاً ـأي: مسنّماـ إلّا سوّيته ـأي ـ سطّحته وعدّلته ـ» وليس معناه: إلّا هدّمته وساويته بالأرض كي يعارض ماورد من الحثّ على زيارة القبور واستحباب إتيانها، والترغيب في تشييدها، والتنويه بها، وذلك المعنى ـأعني أنّ المرادمن تسوية القبر تسطحيه وعدم تسنيمه ـ كان هو الذي فهمته من الحديث أول ما سمعته بادئ بدء وعند أول وهلة، ثمّ راجعت الكتاب ـأعني صحيح مسلم ـ ونظرت البابَ فوجدت صاحب الصحيح ـمسلم ـ قد فهم ما فهمناه من الحديث حيث عنون الباب قائلاً: (باب تسوية القبور) وأورد فيه أولاً بسنده إلى تمامه قال: كنّا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوّي ثمّ قال: سمعت رسول الله ـصلّى الله عليه وآلهـ يأمر بتسويتها[١٥] ثم أورد بعده في نفس هذا الباب حديث أبي الهياج المتقدّم: «ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته».

وكذلك فهم شارحو صحيح مسلم وإمامهم النووي الشهير، وهاهو بين أيدينا يقول في شرح تلك الجملة النبوية ما نصّه: فيه: أنّ السُنّة أنّ القبر لا يُرفع عن الأرض رفعاً كثيراً ولا يسنّم، بل يرفع نحو شبر، وهذا مذهب الشافعي ومن

---

(١٤) معجم مقاييس اللغة ١١٢/٣ (سوى).

(١٥) صحيح مسلم ٦٦٦/٢ باب ٣١/ ح ٩٢.

وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء أنّ الأفضل عندهم تسنيمها[١٦].

انتهى كلام النووي.

ويشهد لأفضيلة التسنيم مارواه البخاري في صحيحه في باب صفة قبر النبي وأبي بكر وعمر بسنده إلى سفيان التمّار أنّه رأى قبر النبي -صلّى الله عليه وآله- مسنّماً[١٧] ...

ولكنّ القسطلاني أحد المشاهير من شارحي البخاري، شرحه في عشر مجلّدات طبعت في مصر القاهرة، قال ما نصّه: «مسناً» بضمّ الميم وتشديد النون المفتوحة أي: مرتفعاً، زاد أبو نعيم في مستخرجه: وقبر أبي بكر وعمر كذلك، واستدلّ به على أنّ المستحبّ تسنيم القبور، وهو قول أبي حنيفة[١٨] ومالك[١٩] وأحمد[٢٠] والمزني وكثير من الشافعية:

وقال أكثر الشافعية[٢١] ونصّ عليه الشافعي: التسطيح أفضل من التسنيم لأنّه -صلّى الله عليه وآله- سطّح قبر إبراهيم وفعله حجّة لافعل غيره[٢٢]، وقول سفيان التمّار لا حجّة فيه -كما قال البيهقي- لاحتمال أنّ قبره - صلّى الله عليه وآله-وقَبْرَي صاحبيه لم تكن في الأزمنة الماضية مسنّمة[٢٣].

وقد روى أبو داود بإسناد صحيح أنّ القاسم بن محمد بن أبي بكر قال: دخلت على عائشة فقلت لها: اكشفي لي عن قبر النبي -صلّى الله عليه وآله- وصاحبيه فكشفت عن ثلاثة قبور لا مشرّفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة

---

(١٦) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٣٠١/٤.

(١٧) صحيح البخاري ١٢٨/٢.

(١٨) المبسوط للسرخسي ٦٢/٢.

(١٩) المنتقى ٢٢/٢.

(٢٠) المغني لابن قدامة ٣٨٠/٢.

(٢١) المجموع ٢٩٥/٥.

(٢٢) الأُمّ ٢٧٣/١.

(٢٣) سنن البيهقي ٤/٤ وفيه -بعد أن نقل حديث التمّار-: وحديث القاسم أصحّ وأولى أن يكون محفوظاً.

الحمراء، أي لا مرتفعة كثيراً ولا لاصقة بالأرض[٢٤]، إلى أن قال القسطلاني الشارح: ولا يؤثّر في أفضلّية التسطيح كونه صار شعار الروافض لأنّ السُنّة لا تترك بموافقة أهل البدع فيها! ولا يخالف ذلك قول علي -رضي الله عنه- أمرني رسول الله -صلّى الله عليه وآله- أن لا أدع قبراً مشرّفاً إلّا سوّيته، لأنّه لم يُرِد تسويته بالأرض وإنّما أراد تسطيحه جمعاً بين الأخبار، ونقله في المجموع عن الأصحاب[٢٥].

إنتهى ما أردنا نقله من شرح البخاري، وأنت ترى من جميع ما أحضرناه لديك وتلوناه عليك من كلمات أعاظم المسلمين وأساطين الدين من مراجع الحديث كالبخاري ومسلم، وأئمة المذاهب كأبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد، وأعلام العلماء وأهل الاجتهاد كالنووي وأمثاله، كلّهم متّفقون على مشروعيّة بناء القبور في زمن الوحي والرسالة، بل النبي -صلّى الله عليه وآله- بذاته بنى قبر ولده إبراهيم؛ إنّما الخلاف والنزاع فيما بينهم في أنّ الأفضل والأرجح تسطيح القبر أو تسنيمه، فالذاهبون إلى التسنيم يحتجّون بحديث البخاري عن سفيان التمّار أنّه رأى قبر النبي -صلّى الله عليه وآله- مسنّماً، والعادلون إلى التسطيح يحتجّون بتسطيح النبي قبر ولده إبراهيم، وصحيح القاسم بن محمد بن أبي بكر شاهدٌ له، ولعلّ هذا الدليل هو الأرجح في ميزان الترجيح والتعديل، ولا يقدح فيه أنّه صار من شعار الروافض وأهل البدع -كما قال شارح البخاري- فيما مرّ عليك نقله.

ولا يعنينا الآن الخوض في حديث الروافض وأنّهم من أهل البدع أم لا، إنّما الشأن في حديث «لا تدع قبراً مشرفاً إلّا سوّيته» وأحسب أنّه قد تجلّى لك بحيث يوشك أن يلمس بالأنامل، ويرى بباصرة العين أنّ معنى «سوّيته» عدّلته وسطّحته في قبال سنّمته وحدّبته ويناسب هذا المعنى كل المناسبة التقييد

---

(٢٤) سنن أبي داود ٣/٢١٥ ح ٣٢٢٠.

(٢٥) إرشاد الساري ٢/٤٧٧

بقوله «مشرفاً» فإنّ أصل الشرف لغةً هو العلوّ بتسنيم مأخوذ من سنام البعير، وعليه فيحسن ذلك القيد، بل يلزم ويكون بلسان أهل العلم (قيداً احترازياً). أمّا على معنى ساويته فالقيد لغوٌ صِرف، بل مخلّ بالغرض المقصود.

وبعد هذا كلّه فهل من قائل عنّي لذلك المفتي، مفتي علماء المدينة الذي أفتى بجواز هدم القبور أو وجوبه استناداً إلى ذلك الحديث: يا هذا! من أين جئت بتلك النظرية الحمقاء، والحجّة العوجاء، والبرهنة المعكوسة، والمزعمة المقلوبة التي ما وهمها واهم، ولا خطرت على ذهن جاهل فكيف بالعالم؟!

اللّهمّ إلّا أن يكون «ابن تيميّة» أو بعض ذناباته فإنّ الرجل ترويجاً لأباطيله، وتمشية لأضاليله، حيث تعوزه الحجة والسند قمن بتحوير الحقائق، وقلب الأدلّة، والتلاعب بالحجج والبراهين تلاعبه بالدين «كما تلاعبت الصبيان بالأُكر».

لا يا هذا، إنّ الشمس لا تستر بالأكمام، وإنّ الحقّ لا يسحق بزخارف الكلام وسفاسف الأوهام... إنّ حديث «لا تدع قبراً إلّا سوّيته» دليل عليك لا لك، وحجّة قاطعة لأضاليلك وقالعة لجذور أباطيلك، فإنّ معناه الذي لا يشكّ فيه إنسان من أهل اللسان «سوّيته أي: عدّلته وسطّحته، لا ساويته وهدّمته»، وبهذا المعنى لا يكون معارضاً لشيء من الأحاديث حتى يحوج من له حظّ من صناعة الاستنباط إلى الجمع والتأويل، وهذا هو معناه بذاته وظاهر من نفس مفرداته وتركيبه، لا الذي يحصل بعد الجمع كما يظهر من عبارة شارح البخاري المتقدّمة.

نعم، لو أبيت إلّا عن حمل «سوّيته» على معنى ساويته بالأرض وجاملناك على الفرض والتقدير، حينئذ تجيء نوبة المعارضة ويلزم الصرف والتأويل، وحيث أنّ هذا الخبر بانفراده لا يكافئ الأخبار الصحيحة الصريحة الواردة في فضل زيارة القبور ومشروعية بنائها، حتى أنّ النبي -صلّى الله عليه وآله- سطّح قبر إبراهيم، فاللازم صرفه إلى أنّ المراد: لا تدع قبراً مشرفاً قد اتّخذوه

للعبادة إلّا سوّيته وهدمته.

ويدلّ على هذا المعنى الأخبار الكثيرة الواردة في الصحيحين ـ البخاري[٢٦] ومسلم ـ من ذمّ اليهود والنصارى والحبشة حيث كانوا يتّخذون على قبور صلحائهم تمثالاً لصاحب القبر فيعبدونه من دون الله، ولعلّه إشارة إلى بعض طوائف اليهود والنصارى والحبشة حيث كانوا كذلك في القديم فعدلوا واعتدلوا.

أمّا المسلمون من عهد النبي ـ صلّى الله عليه وآله ـ إلى اليوم فليس منهم من يعبد صاحب القبر، وإنّما يعبدون الله وحده لا شريك له في تلك البقاع الكريمة المتضمّنة لتلك الأجساد الشريفة، وبكلّ فرض وتقدير فالحديث يتملّص ويتبرّأ أشدّ البراءة من الدلالة على جواز هدم القبور فكيف بالوجوب؛ والأخبار التي ما عليها غبار ممّا ذكرناه وممّا لم نذكره ناطقة بمشروعية بنائها وإشادتها وأنّها من تعظيم شعائر الله (ومن يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب)[٢٧].

تتمّة:

في العام الماضي طبعت في النجف الأشرف رسالة موسومة بـ «منهج الرشاد» لاسطوانة من أساطين الدّين ـ الشيخ الأكبر كاشف الغطاء ـ الذي يعرف كل عارف أنّه كان فاتحة السور من فرقان العزائم، وكوكب السحر في سماء العظائم، هو من أفذاذ الأعاظم الّذين لا تنفلق بيضة الدهر إلّا عن واحد منهم، ثم تعقم عن الإتيان بثانيه إلّا بعد مخض طويل من الأحقاب، من غرّ أياديه ـ وكم له في العلم من أياد غرر ـ تلك الرسالة التي رتّبها على مقدّمة وفصول، عقد كل فصل منها لدفع شبهة من شبهات الوهّابيّة ودحضها بالأدلّة القطعيّة، والأحاديث النبوية الثابتة من الطرق الصحيحة عند أهل السُنّة، على أنّ المقدّمة وحدها كافية في قمع شبهاتهم، وقلع جذوم مذهبهم، وهدم أساس طريقتهم، وقد أبدع فيها غاية الإبداع. ومن بعض أبواب الرسالة: «الباب الرابع: في بناء قبور الأنبياء

---

(٢٦) صحيح البخاري ٢/١١٤.

(٢٧) الحجّ: ٣٢.

والأولياء» وأفاض في البيان إلى أن قال:

والأصل في بناء القباب وتعميرها مارواه التباني واعظ أهل الحجاز عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جدّه الحسين، عن أبيه علي -عليه السلام- أنّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله- قال له: «لتقتلنّ في أرض العراق وتدفن بها، فقلت: يا رسول الله، ما لمن زار قبورنا وعمّرها وتعاهدها؟ فقال: يا أبا الحسن، إنّ الله جعل قبرك وقبر ولديك بقاعاً من بقاع الجنّة، وإنّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده تحنّ إليكم، وتعمّر قبوركم، ويكثرون زيارتها تقرّباً إلى الله تعالى ومودّة منهم لرسوله»[٢٨].

ثم قال -قدّس سرّه- بعد إيراد تمام الحديث: و نُقل نحو ذلك أيضاً في حديثين معتبرين، نقل أحدهما الوزير السعيد بسند، وثانيهما بسند آخر غير ذلك السند، ورواه أيضاً محمد بن علي بن الفضل، انتهى.

والقصارى: أنّ النزاع بيننا معاشر المسلمين أجمع وبين سلطان نجد وأتباعه الّذين يحكمون بضلالة سائر المسلمين أو بتكفيرهم، لو كان ينحسم وينتهي بإقامة الحجج والبراهين لجئنا بالقول المقنع المفيد! ولكان عندنا زيادة للمستزيد، بل لو كنّا نعلم أنّهم يقنعون بالحجّة البالغة، ويخضعون للأدلّة القاطعة، لملأنا الطوامير من الحجج الباهرة التي تترك الحق أضحى من ذكاء، وأجلى من صفحة السماء، ولكنّ سلطان نجد له حجّتان قاطعتان عليهما يعتمد، وإليهما يستند، ولا فائدة إلّا بمقابلتهما بمثلهما أو باقوى منهما، وهما: الحسام البتّار، والدرهم والدينار السيف والسِنان، والأحمر الرنّان، هذا لقوم وذاك لآخرين:

أحدهما لأهل الصحف والمجلّات في مصر وسوريا ونحوهما ليحبّذوا أعماله الوحشية ويحسّنوا همجيّته التي تضعضع أركان كل مدنية.

والآخر لأعراب البوادي ولشرفاء الحجاز وأمثالهم من أُمراء العرب حيث تساعده الظروف -لا قدّرالله-.

---

(٢٨) فرحة الغري: ٧٧.

إذا فأيّ فائدة في إطالة الكلام، وسرد الأحاديث ونضد الأدلّة. نعم، فيها تبصرة وتبيان لطالب الحقيقة المجرّدة عن كل خوف ورجاء، وتحامل وتزلّف، ولكن أين هو ذلك الرجل الطالب للحقّ المجرّد عن كل غرض؟! ولئن كان لوح الوجود غير خالٍ منه ففيما ذكرناه غنى له وكفاية.

أمّا أمير نجد وأجناده وقضاته ومن لفّ لفّهم الّذين اتّخذوا تلك الدعوى والديانة وسيلة لامتداد سلطتهم، واتّساع سطوتهم، وضخامة ملكهم، فلسنا معهم في الخصام وإقامة الحجج إلّا كإشراق الشمس على المستنقعات العميقة، في الأودية السحيقة، لا تزيدها تلك الأشعّة إلّا سخونة وعفونة وانتشار وباء في الهواء.

ليت قائلاً يقول لقاضي القضاة ـ ابن بليهد ـ ولمفتي علماء المدينة: أتراكم تعتقدون وتعتمدون على كل ما في صحيح مسلم، وتعملون بكل ماورد من النصوص فيه؟ فإن كنتم كذلك فقد عقد مسلم في صحيحه باباً وأورد عدّة أحاديث في أنّ الخلافة لاتكون إلّا في قريش، وأنّ الأئمّة من قريش[٢٩]، بأساليب من البيان، وأفانين من التعبير، وكلّها صريحة في أنّ الخلافة الحقّة المشروعة مخصوصة بتلك القبيلة.. ومثله، بل وأكثر منه في صحيح البخاري، وعليه فأين تكون خلافة أميركم ابن سعود؟ وكيف حال إمامته؟ أهي من قوله تعالى: «وجعلنا منهم أئمّة»[٣٠]؟! أم من قوله تعالى لإبراهيم: «إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذرّيّتي قال لاينال عهدي الظالمين»[٣١]؟! وحسبنا هذا القدر، إنّ اللبيب من الإشارة يفهم!

وأمّا حديث لعن رسول الله زائرات القبور والمتّخذين عليها المساجد

---

(٢٩) صحيح البخاري ٧٧/٩ باب «١» كتاب الأحكام، صحيح مسلم ١٤٥١/٣-١٤٥٤ باب «١» كتاب الإمارة.

(٣٠) السجدة: ٢٤.

(٣١) البقرة: ١٢٤.

والسرج[٣٢] فهو نهي للنساء عن التبرّج والخروج إلى المجتمعات وعن السجود على القبر، وهو ممّا لا يصدر من أحد من المسلمين، وعن إيقاد السرج عبثاً وتعظيماً لذات القبر، أمّا الإسراج لقراءة القرآن والدعاء فلا منع ولا نهي، بل في بعض الأحاديث جوازه[٣٣].

هذا كلّه في الجواب عن حديث مسلم في شأن هدم القبور وزيارتها والإسراج عليها، أمّا فتاوى مفتي علماء المدينة الأُخرى المتعلّقة بشأن التبرّك بالقبور، والتمسيح بها، وزيارتها ونحو ذلك، فقد أفتى ذلك المفتي بالمنع منها مطلقاً، ولكن أرسل أكثر الفتاوى إرسالاً من غير أن يسندها إلى حجّة أو يعمدها على دليل حتى نتصدّى للجواب عنه.نعم، قال في آخرها ـ وما أصدق ما قال ـ: هذا ما أدّى إليه نظري السقيم، انتهى.والسقم لا محالة إنّما جاء من إحدى العلّتين اللتين مرّ ذكرهما أو من كليهما، نسأله تعالى العافية لنا ولجميع المسلمين.

وفي الرسالة ـ المنوّه بذكرها من أمَم ـ لكل واحدة من تلك المسائل فصل مستقلّ أثبتُّ فيه من الطرق الصحيحة المعتبرة عند القوم مشروعيّتها ورجحانها وعمل الصحابة والتابعين بها، فمن أراد فليراجع. وعلى هذا الحدّ فلتقف الأقلام، وينتهي الكلام، فقد تجلّى الصبح لذي عينين، والسلام.تمّت بحمدالله تعالى.

* * *

---

(٣٢) سنن أبي داود ٢١٨/٣ ح ٣٢٣٦.

(٣٣) مستدرك الحاكم ٣٧٤/١.

كلّية مذهب الوهابية
وخلاصة القول فيه

إنّ أول من نثر في أرض الإسلام المقدّسة تلك البذور السامّة والجراثيم المهلكة، هو أحمد بن تيميّة في أُخريات القرن السابع من الهجرة، ولمّا أحسّ أهل ذلك القرن ـ بفضل كفاءتهم ـ أنّ جميع تعاليمه ومبادئه شرّ وبلاء على الإسلام والمسلمين يجرّ عليهم الويلات، وأيّ شر وبلاء أعظم من تكفير قاطبة المسلمين على اختلاف نزعاتهم! أُخذ و حبس برهة ثم قتل.

ولكن بقيت تلك البذور دفينة تراب، وكمينة بلاء وعذاب، حتى انطوت ثلاثة قرون، بل أكثر، فنبغ، بل نزع محمد بن عبدالوهّاب فنبش تلك الدفائن، واستخرج هاتيك الكوامن، وسقى تلك الجرثيم المائتة بل المميتة، والبذور المهلكة؛ فسقاها بمياه من تزويق لسانه وزخرف بيانه، فأثمرت ولكن بقطف النفوس وقطع الرؤوس وهلاك الإسلام والمسلمين، وراجت تلك السلعة الكاسدة، والأوهام الفاسدة، على أُمراء نجد واتّخذوها ظهيراً لما اعتادوا عليه من شنّ الغارات، ومداومة الحروب والغزوات من بعضهم على بعض وقد نهاهم الفرقان المبين والسُنّة النبوية عن تلك العادات الوحشية، والأخلاق الجاهلية، بملء فمه وجوامع كلمه؛ وقد عقد بينهم الأُخوّة الإسلامية، والمودّة الإيمانية وقال: «مال المؤمن على المؤمن حرام كحرمة دمه وعرضه»[٣٤] وقال جلّ من قائل: «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا»[٣٥]، أراد الله سبحانه أن يجعلهم فيما بينهم إخواناً وعلى العدوّ أعواناً، أراد أن يكونوا يداً واحدة للاستظهار على الأغيار من أعداء الإسلام، فنقض ابن عبدالوهّاب تلك القاعدة الأساسية

---

(٣٤) مضمون الحديث ورد في الكافي ٢/٢٦٨ ح ٢، من لا يحضره الفقيه ٤/٣٠٠ ح ٩٠٩، مستدرك الوسائل ٩/١٣٦ ح ١٠٤٧٨، المؤمن: ٧٢ ح ١٩٩.

(٣٥) النساء: ٩٤.

والدعامة الإسلامية، وعكس الآية فصار يكفّر المسلمين ويضرب بعضهم ببعض، وما انجلت تلك الغبرة إلّا وهم آلة بأيدي الأعداء ينقضون دعائم الدين، ويقتلون بهم المسلمين، ويصلون ما أمر الله بقطعه، ويقطعون ما أمر الله بوصله، فإذا طولبوا بالدليل والبرهان؛ وجاء حديث السُنّة والقرآن، فالجواب الشافي عند السيف والسِنان، والنَصف مع البغي والعدوان، والحقّ مع القوّة والسطوة، والعدل والسواء، في الغلبة والاستيلاء.

نعم، ليس للقوم فيما وقفنا عليه من كتب أوائلهم وأواخرهم، وحاضرهم وغابرهم حجّة عليها مسحة من العلم أو روعة من البيان، وطلاء من الحقيقة، سوى قولهم: إنّ المسلمين في زيارتهم للقبور وطوافهم حولها واستغاثتهم بها وتوسّل الزائر بالملحود في تلك المقابر قد صاروا كالمشركين الّذين كانوا يعبدون الأصنام، وأصبحوا يعبدون غير الله ليقرّبهم إلى الله تعالى كما حكى الله سبحانه في كتابه الكريم حيث يقول عنهم: «ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى»[٣٦] فلم يقبل الله منهم تلك المعذرة، ولا أخرجهم ذلك الزعم عن حدود الشرك والضلالة.

هذه هي أُمّ شبهاتهم، وأُسُّ احتجاجاتهم، وأقوى براهينهم ودلالاتهم، وإليها ترجع جميع مؤاخذاتهم على غيرهم من طوائف المسلمين من مسألة الشفاعة والتوسّل، والتبرّك والزيارة، وتشييد القبور، إلى كثير من أمثال ذلك ممّا يزعمون أنّه عبادة لغيرالله، وهو على حدّ الشرك بالله، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً.

وأنا أقول: لعمرالله والحقّ ما أكبر جهلهم! وأضلّ في تلك المزاعم عقلهم! وليت شعري من أين صحّ ذلك القياس والتشبيه؟! تشبيه المسلمين بالمشركين وقياسهم بهم مع وضوح الفرق في البين، فإنّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام لتقرّبهم إلى الله زلفى كما هو صريح الآية، والمسلمون لا يعبدون القبور ولا أربابها، بل يعبدون الله وحده لا شريك له عند تلك القبور. والقياس الصحيح

---

(٣٦) الزمر: ٣.

والتشبيه الوجيه، قياس زائري القبور والطائفين حولها بالطائفين حول الكعبة البيت الحرام وبين الصفا والمروة: «إنّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما»[٣٧]، فالطائف حول البيت، والساعي بين الصفا والمروة لم يعبد الكعبة وأحجارها، ولا الصفا والمروة ومنارها؛ وإنّما يعبدالله سبحانه في تلك البقاع المقدّسة، وحول تلك الهياكل الشريفة التي شرّفها الله ودعا عباده إلى عبادته فيها؛ وهكذا زائر القبور.

هذا هو القياس الصحيح والميزان العدل، أمّا القياس بالميزان الأول ففيه عين بل عيون، لابل هو خبط وجنون، أليس من الجنون قياس من يعبدالله موحّداً له بمن يعبد الأصنام مشركاً لها مع الله جلّ شأنه؟!

وكشف النقاب عن محيّا هذه الحقيقة الستيرة، بحيث تبدو للناظرين ناصعة مستنيرة، موقوف على بيان حقيقة العبادة وكنه معناها، ولو على سبيل الإيجاز حسب اقتضاء هذه العجالة التي جرى بها اللسان متدافعاً تدافع الآتي من غير وقفة ولا أناة، ولا مراجعة ولا مهل.

إنّ حقيقة العبادة ومصاص معناها، وكنه روحها ومغزاها بعد كونها مأخوذة بحسب الاشتقاق من العبد والعبودية، وليس العبد في الحقيقة وطباق نفس الأمر والواقع ما ملكته بالاغتنام أو الشراء أو غيرهما من الأسباب، ولا السيّد والمولى من تولّى عليك بالغلبة والقهر، أو المصانعة والخداع، إنّما السيّد من أنعم عليك بنعمة الحياة، وخلع عليك بعد العدم خلعة الوجود، وربّاك في بواطن الأصلاب وبطون الأرحام ستيراً، لا تراك سوى عينه؛ ولا ترعاك سوى عنايته، فذاك هو الربّ والمالك والسيّد حقيقة من غير تسامح في المعنى؛ ولا تجوز في اللفظ، وأنت ذلك العبد المملوك بحقيقة العبودية، المربوب بنعمة الإيجاد والتكوين، والصنع والخلق، وقد اقتضت تلك العبودية، حسب النواميس العقلية، والاعتبار والرويّة، المعزى إليها بقوله عزّ شأنه: «وما خلقت الجنّ

---

(٣٧) البقرة: ١٥٨.

والإنس إلّا ليعبدون»[٣٨].

فالعبادة معناها كلفظها مشتقّة من العبودية، وهي شأن من شؤونها وأثر من آثارها، فإنّ العبودية قضت على العبد حفظاً لاستدامة تلك النعمة، بل النعم الجمّة وامتدادها أبدياً أن يقف العبد موقف الإذعان والاعتراف بها لوليّها ومولاها، فكما أنّه في موطن الحقّ والواقع عدماً صرفاً وعجزاً محضاً ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً؛ ولا موتاً ولا حياة، كذلك يكون في موطن الخارج والظاهر ماثلاً بين يدي مولاه في غاية الخضوع والذلّة، والعجز والحاجة.

فالعبادة حقيقة هي التظاهر بتلك العبودية الحقيقية باستعمال أقصى مراتب الخضوع في الظاهر بجميع القوى والمشاعر مقروناً باستحضار تلك الجوهرة المكنونة، والدرّة الثمينة ـ جوهرة العبودية ـ وأني أخضع وأخشع، وأسجد وأعبد، ذلك المنعم الذي أنعم عليَّ بنعمة الحياة، وأسبغ عليَّ جلابيب الوجود، فصرت بتلك النعم مغموراً؛ بعد أن أتى عليَّ حين من الدهر لم أكن فيه شيئاً مذكوراً.

إذاً فالعبادة على الحقيقة هي كون العبد في مقام الاعتراف والإذعان بالعبودية مقروناً بما يليق بها من استعمال ما يدلّ على أقصى مراتب الخضوع، والذلّة بالسجود والركوع، والهرولة والطواف، وغير ذلك ممّا وصفته الشرائع، وأوعزت إليه الأديان من معلوم الحكمة ومجهولها، ومبهم الحقيقة أو معقولها.

تلك هي العبادة الحقيقة، غايته أنّ عامّة الناس قصرت أفكارهم عن اجتناء ذلك اللبّ واقتصروا على القشور من العبادة، اللّهمّ إلّا أن يكون ذلك مرتكزاً في أعماق نفوسهم على الإجمال في المقصود، دون التفصيل والاستحضار والشهود، وكيف كان الحال، فهل تحسّ أنّ أحداً من زوّار القبور و المتوسّلين بأربابها يقصد أنّ القبر الذي يطوف حوله، أو صاحبه الملحود فيه هو صانعه وخالقه، وأنّه بزيارته يريد أن يتظاهر بالعبوديّة له فتكون عبادة له؟! أو أنّ أحداً من الزائرين يقول للقبر ـ أو لمن فيه ـ : يا خالقي ويا رازقي ويا معبودي؟!

---

(٣٨) الذاريات: ٥٦.

كلّا ثم كلّا ما أحسب أنّ أحداً يخطر على باله شيء من تلك المعاني مهما كان من الجهل والهمجية، كيف وهو يعتقد أنّ صاحب القبر بشر مثله عاش ومات وأصبح رميماً رفاتاً.نعم، يعتقد أنّ روحه باقية عندالله ـجلّ شأنه ـ فهو بها يسمع ويرى (ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحيآء عند ربّهم يرزقون)[٣٩] ونظراً إلى تلك الحياة يخاطبه ويسلّم عليه ويتوسّل إلى الله سبحانه به ويطلب الشفاعة منه.

وبعد هذا كلّه فهل تجد من الحقّ والإنصاف تشبيه الزائرين بعبدة الأصنام وهذه منابرهم ومنائرهم ومشاعرهم تضجّ في الأوقات الخمس بل في أكثر الأوقات بشهادة أن لا إله إلّا الله ويلهجون بأنّه لا معبود إلّا الله؟! فهل ذلك القول إلّا قول مجادل بالباطل يريد أن يدحض به الحقّ، ويلقح شرر الفساد في الأرض، ويريق دماء المسلمين ظلماً وعدواناً؟! وممّا ذكرنا من معنى العبادة وحقيقيّة معناها يتّضح أنّه لا شيء من تلك العناوين الممنوعة عند الوهّابية، من الشفاعة والوسيلة، والتبرّك والاستغاثة والزيارة وأمثالها، له مسيس بالعبادة بوجه من الوجوه، هذا مضافاً إلى صدوره من النبي وأصحابه والتابعين الواردة في صحيح الأخبار من صحيحي البخاري ومسلم وغيرها، وقد استوفى جملة منها جدّنا كاشف الغطاء ـرفع الله درجتهـ في رسالته التي مثلها الطبع في العام الغابر المسمّاة بمنهج الرشاد كما سبق ذكرها قريباً فلا حاجة إلى إعادتها وفيها مقنع وكفاية، من أرادها فليراجعها.

وإنّما جلّ الغرض تنبيه الوهّابيين وغيرهم من المسلمين على موضع الزلّة ومدخل الشبهة وخطل الرأي، وأنّ الصريمة والغريمة اليوم؛ والواجب، بل الأهمّ من كل واجب هو وحدة المسلمين وتكاتفهم، فإنّ الجميع موحّدونفحبّذا لو أصبحوا والجميع متّحدون، ولا يحسبوا أنّ بقاء سلطتهم ونعيمهم بأن يضرب بعضهم بعضاً ويتعادى بعضهم على بعض، بل هذا أدعى لفشلهم وقرب أجلهم.

---

(٣٩) آل عمران: ١٦٩.

وليعلم الوهّابيون علماً جازماً حاسماً لكلّ وهم وشبهة أنّ اليد التي أصبحت تضرب بهم المسلمين اليوم سوف تضربهم بغيرها غداً فلينتبهوا ولينتهوا قبل أن يقعوا في حفائر السياسة السحيقة، ومهاويها العميقة، وإلى الله سبحانه نضرع راغبين إليه وحده في أن يجمع الكلمة ويؤلّف شمل الأُمّة ويوقظهم من سِنة هذه الغفلة التي أوشكت أن تكون حتفاً قاضياً عليهم أجمع؛ وإلى الله تصير الأُمور، ومنه البعث وإليه النشور.

* * *